مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies

namacenter

أوراق نماء

الغزو الفكري بين الحقيقة والوهم ومحاولة الفهم..

-يوسف عكراش

الغزو الفكري بين الحقيقة والوهم ومحاولة الفهم

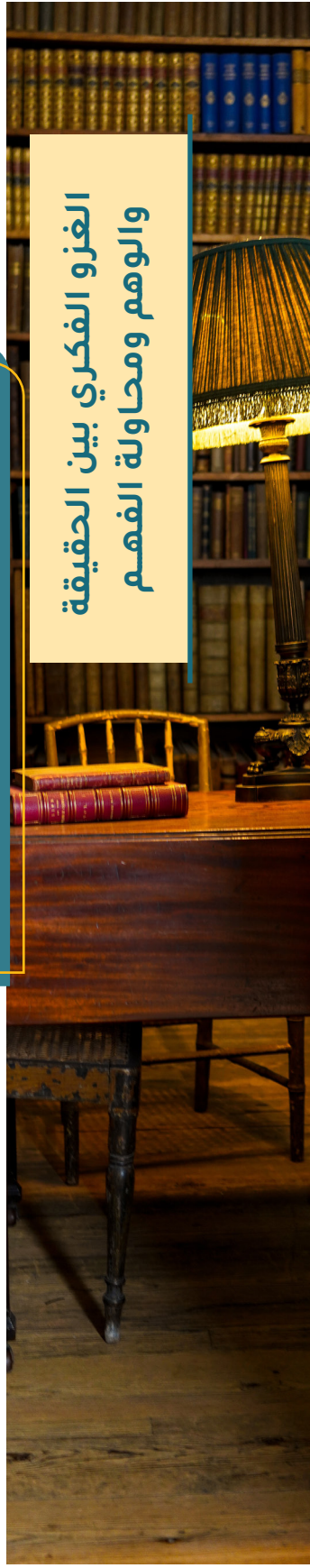

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد:

فمنذ أن أشرقت شمس الإسلام الساطعة وأعداؤه يتكالبون عليه ويكيدون له المؤامرة بين الفينة والأخرى، فاستخدموا كثيرًا من الوسائل والأساليب واستعملوا العديد من الطرائق والمسالك، فتارةً القوة، وتارةً الحيلة، وهكذا ظل هذا الصراع قائمًا ولم تضع حربه أوزارها قط، فلا تمر فترة حتى يختلقوا أسلوبًا جديدًا أو يحيوا مكرًا قديمًا، إلى أن ابتكروا أسلوبًا حديثًا، بحيث تخلو عن منطق القوة والفعل، وتبنوا منطق العقل والفكر، وهو ما يعرف بالغزو الفكري أو الغزو الثقافي، وإنه لم يُسمَّ بهذا الاسم إلا في القرن الحالي.

ومَن تأمل هذا النوع من الغزو ألفاه حقيقة واقعية وسنة كونية أملتها نواميس التدافع بين الأديان والحضارات والأيديولوجيات. ومعناه هو مجموعة من الجهود التي تقوم بها أمة من الأمم للاستيلاء على الأمة الأخرى، أو التأثير عليها حتى تتجه وجهة معينة، وهو أخطر أنواع الغزو لأنه يسلك المسالك الخفية، فلا تستيقظ الأمة المغزوةُ من سباتها، ولا تفكر في صده إلا وقد أضحت فريسة له، فهو داء عضال يفتك بالأمم ويصرفها عن هويتها من خلال إضعاف فاعليتها بالتشكيك في أسسها ومبادئها، وذلك بأسماء مغلفة تحتمل أكثر من معنى كالتقدم، والحضارة، والرقي، ومحاربة الرجعية، ومواكبة المستجدات، كما يعتمد أيضًا هذا النوع من الغزو على الفكرة

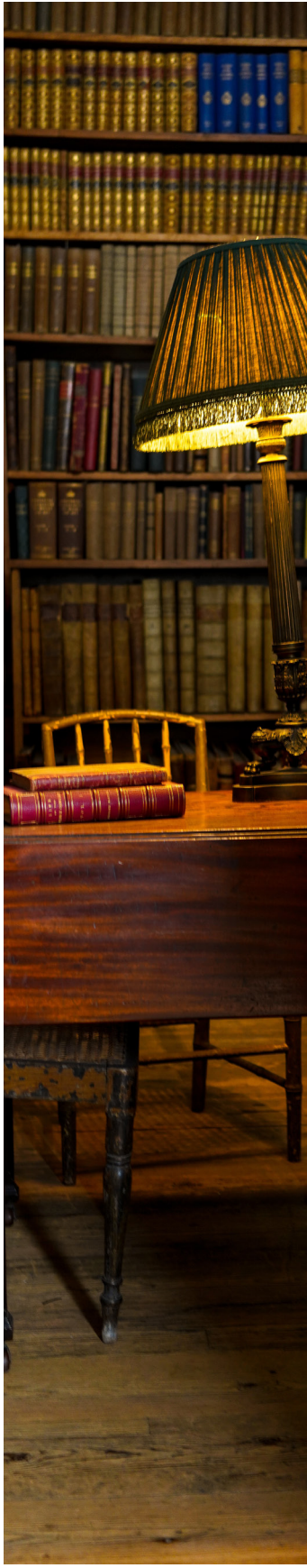

والكلمة والرأي والحيلة، والنظريات والشبهات وخلابة المنطق، وحسن العرض، وشدة الجدل، ولدادة الخصومة.

ومن تبصر لفظ الغزو الفكري وجده لفظًا بالغًا دقيقًا يصور خطورة الأضرار الفكرية التي هدفها الرئيس وقف المد الإسلامي في صمت ونعومة، وحصر الإسلام داخل حدود لا يتجاوزها في ود وألفة، ثم تجزئة المسلمين أرضاً وأمةً وفكراً في مذهب وشيعة، وتشويه صورتهم التاريخية القديمة والحالية تحت فهم خاطئ وتشدد، والحيلولة دون مستقبل مشرق للإسلام والمسلمين بتبعية وركون، ولا يتأتى لهم ذلك إلا بتحقيق ركنين أساسيين:

الاستشراق: هو اتجاه فكري يُعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة العرب وثقافاتهم الإسلامية بصفة خاصة، وقد اقتصر في بادئ الأمر على دراسة الإسلام واللغة العربية، ثم بدأت هذه الدراسات تتوسع وتزداد شيئًا فشيئًا، إذن المستشرقون هم علماء أفذاذ أفنوا أعمارهم وأوقاتهم لدراسة الإسلام ولغته، وقلما يظهر منهم منصف.

وعرفه آخرون بأنه: الدراسات المعمقة والمتخصصة التي يقوم بها الغازي للإسلام في شتى جوانبه: العقدية، والتشريعية، والتاريخية، واللغوية، والحضارية، وفي النظم والإمكانات... بهدف تشويه الإسلام. والدراسات في المسلمين وأحوالهم وطريقة تفكيرهم بغية تشكيك المسلمين في إسلامهم، وتضليلِهم عنه، وادعاء تفوق حضارتهم على الحضارة الإسلامية ومحاولة فرض التبعية لهم على المسلمين، ومحاولة تبرير هذه التبعية بالدراسات والنظريات والفرضيات تدّعي المنطقية والعلمية والموضوعية. ومن تأمل هذه الدراسات وجد أن الدافع لا يمكن أن يخرج عن ثلاثة أمور رئيسة، وهي: الصد ثم الطعن ثم الإخراج.

معنى ذلك؟

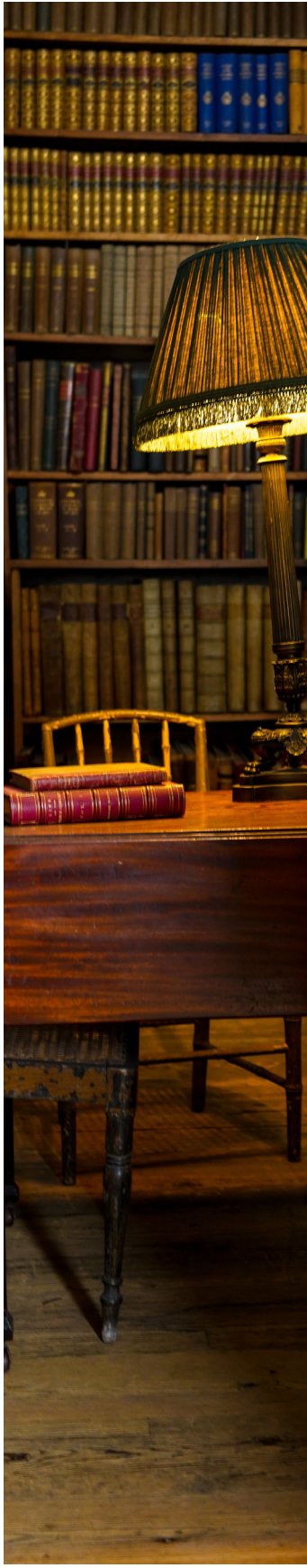

أولاً: صد الإسلام عن الانتشار واتساع رقعته في شتى ربوع العالم، وذلك بطمس معالمه الباطنة والظاهرة تحت دعاوى شتى.

ثانيًا: وبعد مرحلة الصد تأتي المرحلة الثانية، وهي مرحلة الطعن في الإسلام ومحاربته من خلال أتباعه ومعتنقيه، وتشويه مَحاسِنه وتحريف حقائقه، إما عن طريق دراساتهم أو عن طريق استعمال بعض من غسلت أدمغتهم كأداة مثل هذا المهمات فيشيعون التشدد في تعاليم الإسلام السمحة والانحراف الفكري العقدي فيجعلون نقط ضعف فيه فيُبْرِزُونَها، والحط من قدر نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنه استمد دين الإسلام إما من النبوغ أو التكهن...

ثالثًا: وبعد الصد والطعن تأتي مرحلة الإخراج، وهي دعوة المسلمين إلى الخروج من الإسلام واعتناق ديانة أخرى وبالأحرى النصرانية.

التغريب: لغة من غربه يغربه: أبعده وتركه، والتغريب: النفي عن البلد. اصطلاحًا: هو حركة غربية موجهة ضد الحياة الاجتماعية الإسلامية وضد الثقافة الإسلامية من أجل إخراجها عن طابعها الخاص، وحمل المسلمين على تقبل الحياة الغربية وأنماطها بعد الخضوع تدريجيًّا إلى أن تندثر تقاليد الإسلام. التغريب هو الدعامة الثانية، والركن الثاني من ركني الغزو الفكري الموجه إلى الأمة الإسلامية قاطبة.

وقيل أيضًا: هو نقل للحضارة الغربية بسلوكيّاتِها وأفكارِها إلى عقر العالم الإسلامي لتنافس الحضارة الإسلامية أشد المنافسة، عقيدةً، وشريعةً، وسلوكاً في قلوب المسلمين وعقولهم، بل لكي تحلّ محلّها عند بعضهم، وذلك بأيدٍ إسلامية بعد تكوينها وتوجيهها حتى إذا أرادها الغازي حمى تُنهِك كانت طاعونًا يُهلِك.

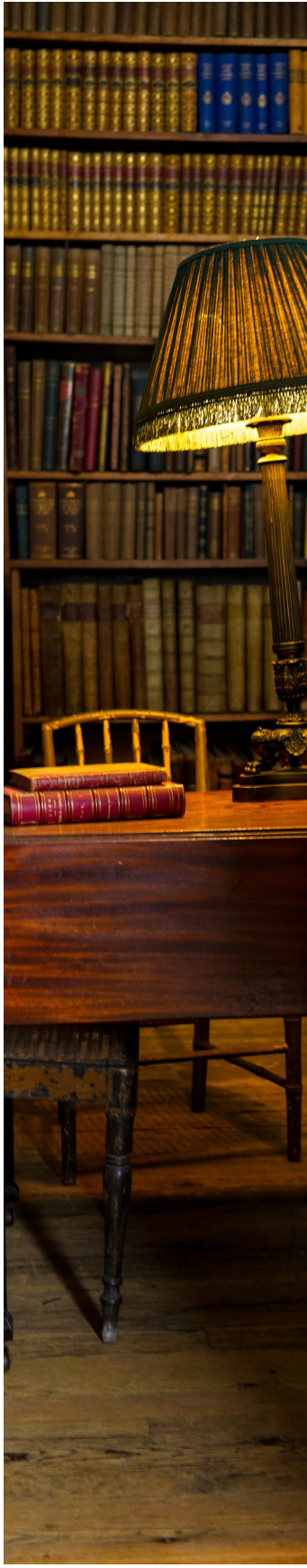

ويرمي هذا الأخير (التغريب) إلى تزييف الوعي وتغليفه، وغرس مبادئ التقبل والخضوع في نفوس المسلمين حتى يترعرعوا وينشأوا مستغربين في أفكارهم ونفوسهم، وحتى تصبح القيم الإسلامية في النفوس هزيلة جدًّا في سلوكياتهم ويشعروا بمركب النقص الدائم إزاءها، ويحتقروا كل المقومات والأسس والمبادئ الإسلامية، ويحمل ذلك على قبول الفكر الآخر حسًّا ومعنًى، ولن يبقى من القيم الإسلامية إلا صور قليلة وباهتة ومشوهة لا تكاد تبصرها إلا قليلًا، ولن تستطيع أن تأخذ مكان هذه الأفكار ببريقها وحسن عرضها.

وإن السبيل إلى هذا الطرح من الغزو وخوض سبله هو تأكدُ الغازي ألا مكان حالي ولا زمان آتي إلى قوة العدة والعتاد أمام الإسلام، وخاصة أن تعاليم الإسلام تفرض المقاومة وبذل الغالي والنفيس من أجل حماية الدين والعرض والأرض، لذلك أضحى من المستحيلات الثابتة السيطرة عليهم، فكان الغزو الفكري أو الثقافي هو الحل الأجدر بالنسبة لهم فاهتدوا إلى هذا المنفذ، ألا وهو التركيز على مفاهيم الهوية الإسلامية بعد دراستها لإخلائها من مضمونها وتجريدها عن خصائصها وتحويلها عن منطلقاتها وأهـــــدافها، أما الأمور التي عسر عليهم فهمها وصعب عليهم احتواؤها فقد وجدوا لها طريقًا آخر تحت مسمى التجديد، فقاموا وما قعدوا يقولون بإعادة قراءة التراث وتجديد الخطاب الديني وعرضه على العالم ليواكبه دون أدنى ضابط أو قيد أو شرط، فتحول الغزو من العسكري الذي يستهدف الأجساد إلى الغزو الفكري الذي يستهدف العقول، ومن مظاهر ذلك إجمالًا دون الخوض في كل مجال على حدة:

- زرع مركب النقص عند المسلمين، وأن سبب التخلف هو التمسك بثوابت هذا الدين وتجسيد تعاليمه.
- التركيز على المفاهيم الإسلامية تدريجيًّا وإفراغها من مضامينها ومحتوياتها وتحويلها عن مقاصدها.

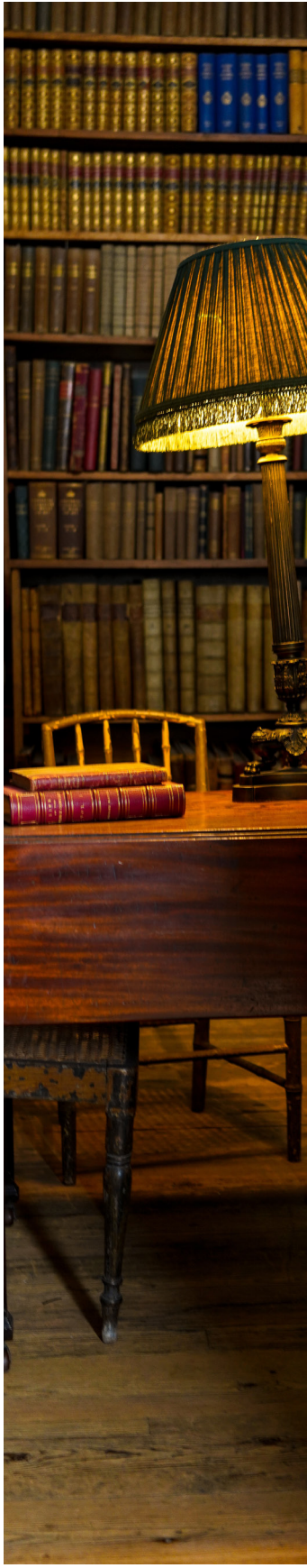

- تشكيك المسلم في موروثه الإسلامي وذاكرته التاريخية واعتبارها مصدر الرجعية وخصوصًا قضية اللغة العربية.

- جعل تعاليم الإسلام ومعالمه تقاليد دون علم أو فهم، مما يهون اقتلاعها من جذورها.

- التركيز على إبراز مظاهر الانحراف التي حدثت في بعض عصور الإسلام نتيجة سوء الفهم للدين وتشدد البعض وانحرافهم في تنزيل تعاليمه.

- اصطناع القدوات الزائفة والمؤقتة في العديد من الميادين مما يجعل الشباب يحيد عن القدوات الحقيقية والأصيلة.

- إظهار الحضارة الغربية بمظهر الرقي والتقدم من أجل استقطاب المسلم «المثقف» أو «العصري» أو «الحداثي».

- تصدير أنماط العيش بغية التقليد وتغيير النظرة للحياة.

- تمجيد الحضارات الأخرى واعتبارها هي المقياس الوحيد للتقدم والرقي والازدهار.

- تكثيف عمليات الاستشراق في العديد من الفنون والاهتمام بها أشد الاهتمام.

- إحياء النزاعات القبلية والطائفية والجاهلية وإثارة الخلافات وإثارة قضية اللهجات واللغات تمكينًا للفرقة والشتات.

وإن انتشار مظاهر الغزو الفكري وسيادتها بشكل كبير أقرب في نفوس الناس بحجية أمر الواقع وثقله، فأصبحت في حسهم جديرة بالاتباع والاقتفاء، لا لجدارتها النابعة من ذاتيها، ولا لأنها صحيحة، ولكن فقط لأن وجودها هو الغالب والبديل

هو المغلوب، مما جعل الغازي يستهدف الجذور لا القشور ويحاول القضاء على الجوهر لا العرض.

أما إذا خضنا في الحديث عن النتائج الحقيقة للغزو الفكري فقد أضحت عميقة بالغة، وخلفت أجيالًا هجينة جديدة لا من هؤلاء ولا من هؤلاء تحسب نفسها قد سلكت طريق الرقي والتقدم والحضارة، وما هي في الحقيقة إلا نموذج تابع يقبع تحت المظاهر الكاذبة، والادعاءات الفارغة، ومِن ثَمَّ فقد نتج:

- سيادة الأخلاق والثقافات والعادات للأمة الغازية بين أفراد الأمة المغزوة، وضعف القيم الإسلامية.
- مداهمة العقيدة الإسلامية قصد اقتلاعها من القلوب، وصرف المسلمين عن التمسك بالإسلام فكرًا وسلوكًا وقيمًا.
- إيلاء أهمية للقشور والشكليات والفروع للتعلق بها أكثر فأكثر، وإغفال المضامين والمحتويات.
- ضم الأجيال القادمة تحت مسمى الاستشراق بغية فهم مداخل التراث ومخارجه بالنسبة لهم.
- تغيير الفكر وغسل الدماغ وطمس الهوية تحت مسمى تلاقح بين الحضارات دون أدنى ضوابط أو قيود أو شروط.
- تهميش جهود علماء المسلمين وإزالة الثقة بهم وإشعال فتيل الفتنة بينهم، وتشجيع المستشرقين وتمكين كتبهم بين يدي صغار الطلب ومبتدئي الباحثين حتى يحذوا حذوهم.
- تمجيد الغرب وشخصياته وتعظيمها لتسهيل التأثير والانقياد والإذعان.

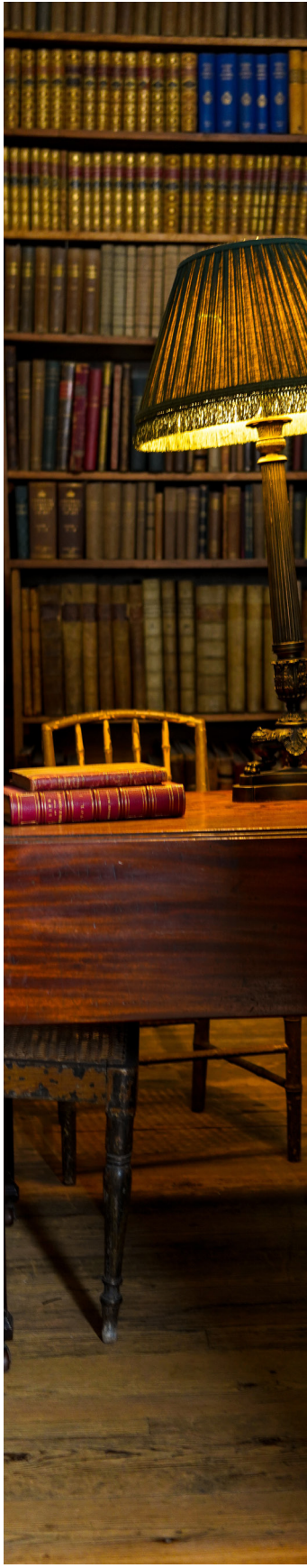

وغير ذا مما نتج بعضه جلي ومعظمه خفي، وكلها تصب في بحر واحد ألا وهو تحطيم المبادئ الإسلامية لعقيدة المسلم وفكره وحضارته وأنماطه المعيشية، ثم ترويضه كيفما يحلو حتى إذا أراده الغازي حمى تُنهِك كانت طاعونا يُهلِك.

ثم إن الحديث عن هذه الحركة كاملة البناء بإيجاز ليس شيئًا عفويًا بريئًا، إنما هي مخططات ومجمعات عملية متخصصة، تهيئ الظروف وتعد البرامج، وتدرب الأطر، وعلى النقيض من ذا هناك العديد من المفكرين إما سذاجة أو مداراة ينكرون أن هناك شيئًا اسمه الغزو الفكري، وأنه وهم لا حقيقة له في الواقع بطرح جملة من الدعاوى المتعددة، كتلاقح الحضارات وتبادل المنافع بين الأمم والشعوب، وتطوير الإسلام وإعادة تفسيره أو قراءته دون أدنى ضابط أو شرط بحيث يصبح متفقًا مع الحضارة الغازية.

والحقيقة أننا لا ننكر ضرورة تلاقح الحضارات وتبادل المنافع والخبرات، فإن هذا شيء والغزو الفكري شيء آخر، وإن الأمة المتماسكة البنيات تنهل من غيرها ما ينفعها ويثبت كياننا ويبرز خصائصنا ويفرض ذاتيتنا، أما أن نغترف كل ما يساق إلينا ضرَّ أو نفعَ، وافقَ أم خالفَ، حتى ينتهي بنا الأمر إلى فقدان هويتنا وتعَكر صَفوَ ثوابتنا فما هذا من تلاقح الحضارات وتعارف الشعوب في شيء. وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال «لَتَتَبعن سنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شبْرًا بشبْر، وَذرَاعًا بذراع، حَتى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضب لَسَلَكْتُمُوهُ، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله اليَهُود وَالنصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟».[1]

أما محاولة تطوير الإسلام وإعادة قراءته بدعوى أن الحاجة أصبحت ملحة وخصوصًا في خضم هذه التحولات والتطورات في مختلف مجالات الحياة، فيجاب عنها بأنه مهما تعقدت

(١) أخرجه الحاكم في كتاب الإيمان (الحديث ١٠٦).

أشكال الحياة وتشعبت مذاهبها، فإن الشريعة الإسلامية بجميع أصولها وفروعها كفيلة بإيجاد الحلول الفورية الناجعة لكل المعضلات التي تواجه المسلمين في كل عصر ومصر، وذلك بما تميزت به خصوصياتها ونصوصها وقواعدها ومقاصدها من الإحاطة والشمولية والمرونة والقدرة على استيعاب مختلف القضايا المعاصرة، والمستجدة في واقع الحياة، وذلك عن طريق التدبر والاجتهاد، والاستنباط، مع فقه الأحكام، وفقه الواقع، وفقه التنزيل بينهما.

وختامًا فلا مرية ولا ريب أن الغزو الفكري حقيقة لا غبار عليها، وأنه ظاهرة تحتاج منا إلى وقفة تدبر وتأمل لإدراك كل المخططات والجهود التي أريدت بنا، من أجل فهمها واستيعابها بغية اتخاذ الموقف المناسب والرأي الصائب حفاظًا على الهوية الإسلامية والقيم السامية.